

مدن العراق القديمة

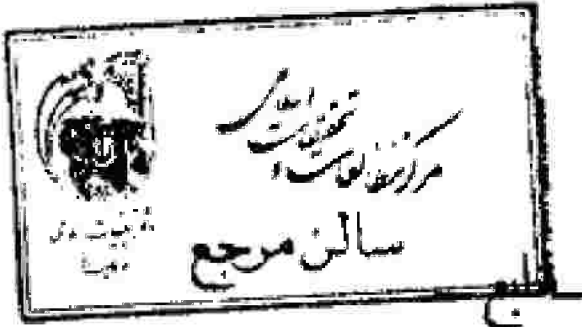
Les vieilles Cités de l'Iraq.

كيش (تل الاحيمر)

وعلى من يزور كيش ان يصعد قبل كل شيء الى الزقورة الحربية (تل الاحيمر) فيرى في وسطها المتخذ من اللبن ما يدل على ان الزقورة العظيمة احرقت برمتها ، لان الملاط الصاصالي نفسه مشوي . وهناك نوافذ تخرق التل من جانب الى جانب وقد اصبحت الآن مأوى الثعالب . ويرى بين طبقات الآجر طبقات الرماد الابيض الدال الى هذا اليوم على نوع الحصير المستعمل ، وهو من جنس الحصير الذي يتخذ العرب في زمننا هذا ليعمروا بها اكواخهم . (راجع ايضاً ما يخص عقرة قوف وبرسبا) .

ويتضح عظم المدينة الواسعة الارحاء ان يجول بنظرة وهو واقف فوق قمة برج الهيكل الذي يبلغ اليوم من الارتفاع نحو ستين قدماً . ولكنه كان في حينه اعلى من هذا بكثير . ويمكن اقتفاء اثر اهم مزايا البلدة بمراجعة الخريطة . وطول مدينة كيش زهاء خمسة اميال في عرض ميلين ، ويظهر انها كانت في بادئ امرها مدينتين توأمتين واقعتين على ضفتي الفرات المتقابلتين ، وكان يجري النهر من الفجوة التي ترى بين طائفتي الروابي الرئيسيتين . وكان هيكل البابا وزقورته قائمين على ضفة النهر على نصف ونصف ميل من باب المدينة الغربي . وقصفت الروابي الواقعة هنا وهناك بين مساحة الهيكل وبين موقع الباب فاتضح انها بقايا دور سكنى ، وكانت تتألق في الزمان الذي اعاد ملوك بابل العظام ، ملوك السلالة الاولى . هيكل اله الحرب وزخرفوه .

ومن هناك يسير الزائر الى اخربة قصر محصن واقع على مسافة نحو ميل شرقاً في وسط منطقة تجذب الانظار لخلوها من النول ، ويظهر في اول وهلة انه لا يتوقع شيء فيها . ومع ذلك بعد مرور يومين من هبوط الامطار تبدو في الموقع نفسه عدة ابنية كبيرة بدوا جلياً فوق التراب . ويمكن اذ ذاك اقتفاء اثر



الغرف والدهاليز حتى الابواب والمنزويات ، وذلك لما بين الابن القديم والتربة المحيطة به من الفرق في الجفاف .

والى اليوم لم يكشف القصر كشفاً صادقاً إلا انه يبدو جلياً ان هناك من الفائدة المحارقة العادية ما لا يخفى على احد ، ولعل الزائر يخيب ظنه بعد الالتفاتة الاولى لما يرى حوالى من الخراب الظاهر . ولكن لو نقب القسم الشرقي من البناء لكشف دهليزاً تمت الارض يمتد على موازاة جدار الحصن في الخارج . وثمن ذلك الجدار اربع عشرة قدماً ، ولعل تلك الازقة اقدم ازقة تعرف من نوعها ، وكلها تبيح للمنفرج بمكنونات غابر عهدها . وما جرى فيها من الوقائع الخطرة ، والحوادث الروائية ، التي تروق للانسان لما فيها من عواطف الاطفال ، اذ ان هذه العواطف لا تبرح معظم البشر طول حياتهم . ولم يوقع بعد على احد طرفي هذا الممر مع انه حفر فيه ما طوله مئتا قدم . ويرى بين تلوي تلك الانقاض المملئة ما تحتويه من اسس الابراج المستديرة والبشر الواقعة في الغناء ، والحمامات والبلايع المقيرة وموائد الطعام وطبقات الرماد الدائمة على اب القصر غزي واحرق غير مرة . وباجهاد الفكر بعض الاجهاد ، يمكننا ان نعيد الى غيبتنا ذلك البناء وقديم مجده وما طرأ عليه من الطوارىء الخيالية وما شاهده من المحاربة والموت . وهو اليوم خراب غريب في موضع مهجور .

وعلى الزائر بعد ذلك ان يهرج نحو الجنوب ليرى الابنية المحفورة في كتلة التلوي المرتفعة التي يسميها العرب هنالك « عين غرا » وكان اسمها في القدم « هر سبجكالا » . وترى في ذلك الموطن زقورتان (مفتولتان) ، وهيكلان على اقل تقدير ، وقصر محصن ، وهناك ايضاً ابنية اخر لم يطلع على حقيقتها بعد . واول شي يستوجب كشفه هيكل عظيم ، لم يحفر منه الى الآن إلا قسم لا غير ، ولا تزال بعض جدرانه قائمة في بعض الاماكن وارتفاعها ثمانى عشرة قدماً . وجدد نبو كدراصر الثاني هذا الهيكل في القرن السادس ق . م . ويتضح انه جرت فيه ترميمات غير مرة قبل ذلك الحين ، وفي الحقيقة ان هناك ما يدل على ان الهيكل الاصلي يعود الى زمن قديم جداً ولعلنا يرجع الى سابق تاريخ

الشمرين. وربما كان الهيكل « إهر سبجكالا » والزقورة الكبيرة من الزقورتين يعودان الى « اينيتا » معبودة الشمرين والصورة الاولى لا شتر ، إلا انه لم يشر الى هذا الحين على برهات جازم يفصح عن الآلهة لمن كانت هياكل هر سبجكالا مرصدة .

ويقتضي ان الزقورتين كانتا قائمتين في زمن مجد سرجون الاول ومملكة اكد ، اذ ان قلبها اتخذت من الآجر المسطح المقبب . واهمل استعمال هذا النوع من الآجر بعد اخضاع الساميين للشمرين . وقد ظهر ان الزقورة الكبيرة جدها سرجون نفسه واعاد وجهها بالآجر المربع الضخم الذي كان يستحسنه . وبعد ان يدور الزائر حول الزقورتين يأتي الى بناء كان نقب فيه المسيو « دي جنويك » سنة ١٩١٢ . وثبتت انواع الآجر المبنية به الجدران العالية . ان هذا البناء جدد ايضاً عدة مرار . ويظن انه جزء من هيكل (?) « لانيتا » وستكشف حقيقة بعد تنقيب يعمق فيه ، كما انه يعتقد ان الهيكل الذي تعود اليه الزقورة الصغيرة واقع في رواب كبيرة مجاورة لها .

وفي جنوبي هذا الهيكل ، وعلى قرب منها ، يرى خليط من التلول هي انقاض تدل على موضع القصر المحصن العجيب للملك كيش ، وربما كانوا من السلالة الثانية . وبني ذلك القصر وضيف الى بناء فترك قبل ٣٠٠ ق . م ، واذا جال الزائر بين الروابي وقف بفتنة على فناء دار رحيب ، امام وجهه بناء يذهل الناظر اليه ، وهنالك درج عريض ومنخفض ذو اربع عشرة مرقاة . ولم يبق منها شيء غير اللبن ولكن ينبغي اننا كانت في بادئ امرها مكسوة بمادة اصلب ، ولعل تلك المادة كانت النحاس الاحمر ، اذ يظهر اننا كانت للشمرين كمية وافرة من ذلك المعدن . ولا ريب في اننا كان نصف العمدة القائمة في أحد اطراف الفناء منظر هائل حينذاك . كما انه لا يشك في ان تلك الاساطين الشاحنة كانت مغطاة بالمعدن . او يحتمل انها كانت مرصدة بالصدف والمحار ومحفورة في الحجر الكلسي على شكل يرى في القطع التي عثر عليها في الغرف المجاورة لها . وتلك القطع على جانب عظيم من الرونق والاتقان تروق الالباب . (راجع المحفورات في تل المييد) .

وينجلي كل الانجلاء للجوابه الخبير ان هذا القصر العظيم اكتسح واحرق وربما حدث ذلك في سقوط السلالة التي اضافت الى القصر جبهته القائمة على العمدة . وهناك ما يدل دلالة لا ريب فيها على ان حماة الحصن دافعوا دفاع الابطال وما زالوا يقاومون الاعداء مدة طويلة ويتنقلون من غرفة الى اخرى ، واقاموا الموانع هنا وهناك بسرعة بعد ان اقتحمت اسوار القصر المحكمة التحصين .

ووقع على صفيحة صغيرة من حجر الكلس في احدى الغرف فيها من اقدم خط الشعريين المعروف ، وهي محفوظة الآن في المتحف في بغداد . وتعود رسومها الرمزية الى زمن اقدم من زمن ذلك القصر ، ويجوز انها اذخرت كذكرى منقولة أو كمطرفة من حجر .

وقبل مغادرة هذا الموقع المفيد يجب زيارة مسكن النساخ المنهدم الواقع على ربع ميل من غربي القصر . فقد عثر على عدد كبير من الصفائح اللغوية والنحوية والدينية في دور متخربة من عصر « إسن » وعصر بابل الجديد . وكثير من تلك الصفائح مسطر على شكل دفاتر هذا اليوم ، والبعض منها ملقى في اللازقة الضيقة ، وفي ذلك ما يذكرنا بان في تلك الايام القديمة نفسها كان الاولاد الصغار يذهبون الى الكتاب على رغم من اوداتهم .

والى ما وراء ابنية هيكل « هرسجكلما » تنساب تلول واسعة الامتداد وتتصل بتخوم المدينة الشرقية . وربما كانت تلك الروابي بيوتا عديدة للأماوى ، وفيها ما يبين انها سكنت الى زمن القرس وعصر الفرثيين . ولكن لم يبق احد بتقريب هذه المنطقة تنقياً منظماً .

وقد استفيدت فائدة جليظة من الحفريات التي قام بها في اخريات الايام . الأستاذ « لنفدن » المدير العام لبعثة كيش ، في محل يسمى « جدد ناصر » على خمسة عشر ميلاً من الشمال الشرقي . ولا جرم ان هذه الاخيرة ترجع الى ما يسبق تاريخ الشعريين . والآجر هنالك قائم الزوايا . ولكنه يختلف كل الاختلاف عن الآجر الذي حل محل المسطح المقبب . والخزف المطلي يشبه نماذج الخزف القديمة جداً التي كشفت في السوس وميشان في عيلام .

بابلو (بابل) - (هي بابل المذكورة في التوراة : سفر الملوك الثاني ١٧ : ٣٠ و دانيال ٤ : ٣٠ الخ) . وهي على مسافة ٥٤ ميلا من بغداد في السيارة . واما من الحلة فعلى ثلاثة اميال .

يقال ساكن الاسد الوزغة حيث كان يعز جشيد ويشرب . (بيت شعر فارسي) لا ترى مدينة من المدن يصح فيها قول الشاعر الفارسي كما يصح في بابل ، لما يرى فيها من الخراب الهائل الموحش ، والابن المل بوحدة لونها . فلقد انقرض الاسد الآن من ارض الراودين - إلا ان الحاكم التركي في الحلة اهدى الى « لايرد » في نصف القرن المنصرم اسدين كانا آخر نوعهما في هذه الديار ، بيد ان الضبع والثعلب يحلان محل الميت . وهناك ابرص صغيرة تسرح على الروابي التي يعلوها الغبار .

ولو خرقنا بفكرنا الستار الحالي ، ستار الخراب السائد في هذه المدينة ، وعبرنا تلك الايام حين كانت بابل في اوج مجدها وذكورة عظمتها في عصر نبو كدراصر الثاني ، لرأينا مزايا عجيبة في اكوام الابن المتراكمة وربما ظهر فيها بعض الرونق .

ومن ير بابل المرة الاولى يرتبك في منطقة الاخربة الفسيحة التي تسكاد تشابه في الحجم والون ، وعليه يشار الى الباحث ان يباشر مشاهدة هذا الموطن القديم آخذاً بكويرش ، وهي قرية صغيرة يسكنها الاعراب في يومنا هذا ، وواقعة على ضفة النهر ، وسكنها الاثري الالماني « الدكتور روبرت كولدواي » مدة تنقيب الطويل الذي بدأ به في سنة ١٨٩٩ وانتهى عند نشوب الحرب العظمى ويقع تل القصر في شرقي القرية توأ ، ويتضمن ذلك التل اهم ابنية المدينة الجليلية التي كاد يعيدها نبو كدراصر كلها لتكون آية لمجده وجلاله (دانيال ٤ : ٣٠) وهناك طريق آثار اقوام تعتمد من جانب التل الشمالي فتعبر بالزاوية الشمالية الغربية من جدار المدينة الداخلي الى ان تؤدي الى اسد بابل الشهير الواقع على مرتفع صغير محاطاً بغدران مملوءة قصباً . وهذا الاسد متخذ من البصلد وهو كبير واقف فوق رجل مضطجع .

ويرى على قرب من ذلك الاسد الطريق المقدسة ، وهي طريق مرتفعة

معتلة كانت في حينها مبلطة بقطع كبار من حجر الكلس . وكان يسار عليها بالالهة في كل رأس سنة باحتفال جليل فتقل الى هيكل مردوك المسمى « إي ساجلا » اهم هياكل بابل .

وكان يقوم على جانبي الهيكل جدران فيها رسوم السباع الهائلة بحجم طبيعي واسود وثيرات وحيوانات خرافية محفورة حفرأ تتألق فيه الالوان الزاهية ومصنوعة باتقان فاق به الحذاق البابليين سواهم . وكان في الجانب الايمن قصور وفي الجانب الايسر هيكل « نين مخ » إلهة الامهات ، وكانت النساء تنذرن لها التماثيل بشكل والدآ وابنها لتمن عليهن بولد .

وإحسن الزائر ان يلاحظ عند مروره بباب اشتر اقيسته الحارقة العادة ، ذلك الباب الفخم الزاهي الى هذا العهد مع انه في حالة خربة . ولا جرم ان هذا الباب بابان لان جدار المدينة الداخلي كان مزدوجاً . ويحتوي ذلك الباب على ما يشبه فناء وسطاً ناشئاً من تشييد جدار في كل جانب منه يمر الواحد بالآخر . وارتأى بعض الثقات ان دانيال حين بقي في جب السباع كان هذا الجب الخندق الواقع بين الجدارين وكانت السباع فيه معتقلة (دانيال ٦ : ١٦) . واباب اشتر طبقتان . وكانت الطريق المقدسة تمر بطبقته العليا المزخرفة بالحيوانات بحجمها المألوف ومنحوتة نحتاً محكماً والمنهونة بالوان بديعة . واما الطبقة السفلى فكانت غرقاً وآزاجاً تحت الارض ، وكثيراً ما تشبه السرايب التي يسكنها اهل العراق في عصرنا هذا . وهم يشيدون بعضها تحت الارض هرباً من حر الشمس اللافح في القيظ . ويرى ايضاً في ذلك القسم من الباب حيوانات منحوتة ولكن يظهر انها لم تلون قط .

وتل القصر كله الواقع في شمالي باب اشتر وجداره كتلة من الآزاج المتداخلة وكلها متهدمة ، ويتعذر الوقوف على خطة البناء الاصلية . ولكن كانت تقوم في هذا التل قصور « نبوباصر » وقصور نجله نبوكدراصر الثاني ، الذي حاز من الشهرة ما يفوق شهرة والده .

وقد سمى الآلمان ههنا سعباً محموداً حتى انجلت لهم رسوم الطبقة الارضية من الآتية الواحد بعد الآخر فضلاً عن رسوم عدة غرف محاطة بها . ويدعون ان في

هذا التل كانت « الجنان المعلقة » الشهيرة الممدودة من عجائب الدنيا السبع ، وكان في التل أيضاً غرفة عرش نبو كدراصر التي ظهرت فيها لبشصر اليد المنبثة السكاتية على جدرانها (دانيال ٥ : ٥) قبل احتلال كورش الفارسي تلك المدينة (٥٣٩ ق . م) بيد انه لا يرى فيه ما يفصح عن عظم بابل في سابق عهدها سوى عقود الأبنية التي كان عليها بناء ضخيم فضلاً عن رسم ودهن أنهدمت جدرانها منذ زمن طويل فأصبحت تراباً .

وتحدر الطريق المقدسة الى ما وراء القصر شيئاً فشيئاً فتعمر بهيكل اشور و « تل المركز » ، وهو أخيرة دور سكنت في عدة عصور ، ويقع هذا التل على يسار القصر ، ثم تنعرج الطريق انعراجاً قوياً فتتجه نحو « تل عمران » . وتمكن المتقربون للألمانيون من أن يقعوا هناك على رسم الطبقة الأرضية « لاي سبلا » هيكل الآله القهار مردوك بين خليط كثير من اللبن والانقاض . ولكن لم يبق شيء الآن ينطق بجليل مجد ذلك الهيكل الذي أمر بحرقه ان تكون شرائعه فيه على صفيحة حجر عظيمة . وبعد سبعة عشر قرناً عقد فيه قواد الاسكندر مجلساً بعد وفاة زعيمهم . ويرى الى شمالي الهيكل كل ما بقي من « أنتمن انكي » « دار حجر اساس السماء والأرض » ، وهي برج بابل العظيم ذو الطبقات السبع الواقع الآن في حفرة كبيرة يغمر الماء قسماً منها في الشتاء ، وهو من غريب الاتفاق .

ويمتد من هيكل مردوك ممر يؤدي الى مركز الجسر الذي كان يجمع قسعي بابل احدهما الى الآخر وكلاهما راكب ضفتي النهر . ولا تزال اساس ادمية الجسر ظاهرة في ثغور عقيق النهر القديم وكان واقعاً في شمالي تل عمران على ما يرى اليوم وقوعاً قاصداً . ويتسنى للجوابة الواقف فوق هذا التل ان يطلع على وضع الاخيرة العام ، ومن ثم يسير الى المسرح اليوناني المشيد قبل موت الاسكندر في بابل (٣٢٣ ق . م) بنحو سنتين ، ولسوء الحظ لم يبق من المسرح المتدرج شيء غير خطته الخارجية .

ويمكن اقتفاء اثر خطوط جدران المدينة من قمة « تل حميراء » القائم على شمال شرقي المسرح وبالقرب منه . ويبلغ محيط الجدار نحو عشرة اميال وكان

محكماً احكاماً خارق العادة . وفي الحقيقة كان عريضاً جداً ، اذ نقل من هيرودوتس انه كان يتيسر لمجلمة تجرها اربعة رؤوس خيل ، ان تدور في الطريق الواقعة بين صفى ابنة ذات طبقة واحدة قائمة على حافتي سطح الجدار .

وعلى مسافة قصيرة من الاخرية الرئيسية وشمالها داخل الجدار الخارجي توارى يرى تل بابل ، وهو بقايا القصر المحصن الذي بناه نبو كدراصر لمحافظة المدينة حين يهاجمها عدو من الجانب الشمالي . ووضع نبو كدراصر نظام دفاع عظيم لانها كان يخشى دائماً غزوات الماذين ، ومن ضمن ذلك النظام سور منيع كبير ترى اخرته الى هذا الحين على خمسة عشر ميلاً من جنوب شرقي سامراء ، وهناك ايضاً حصن « سفر » وهو سور آخر يمتد نحو كيش ، فضلاً عن ذلك كانت لديهم وسائل تمكنه من ان يغمر الاراضي ما حوالى بابل فتحول دون العدو . (راجع ما يخص اوبس وسفر) .

ويتطلب تدوين تاريخ بابل مجلدات طويلاً ، مع ان المدينة حديثة العهد بالنسبة الى كثير من بلدان سهل شمعار المجاورة لها . ومعظم تاريخها حروب واضطرابات ، وحربها لاشورية لم تقطع البتة ، وكانت اشورية خصم بابل في الشمال ، وقد سلبت بابل مراراً واحرقت ، واختطف الاله مردوك من هيكلها (راجع ما يختص باشور ونيوى) . بيد ان بابل اصبحت في ازمة الصلح مقر الديانة والعلم والفلسفة ، فضلاً عن انها كانت موئل التجار ، وكانوا يؤمنونها من ديار شامسة ، وتبرز ثلاثة ازمة من تاريخ بابل بروزاً جليلاً وهي :

عرفت سلالة بابل الاولى بحكم حرب العظيم . والى اليد البيضاء لما اوجد من الشرائع التي انتفع بها العالم نفعاً جماً بقدر حق قدره .

عظم شأن بابل بعد ذلك حين حكمت سلالة « فاشي » (١١٦٩ — ١١٠١ ق.م) فتلالا نجمها في اثناء سلطنة نبو كدراصر الاول . اذ ان هذا الملك فاق فوقاً عظيماً حكم ملوك كيش الحامل . لانهم ملكوا في بابل زهاء ستة قرون ولم يتمكنوا من ان يقهروا جيوشهم الاشوريين القهارين في الشمال . ولكن سلالة « فاشي » دانت لعزم « تغلث فلاشر » الاول وقوته (راجع ما يختص باشور) ورزحت المملكتان تحت حمل غزوات الاربيين في الشمال مدة تقارب القرنين .